

الأبعاد الأنثروبولوجية في الشعر الشعبي الجزائري الحديث – دراسة في نماذج مختارة-

Anthropological Dimensions In Modern Algerian Folk Poetry-A Study Of Selected Models-

*- د. سهام سلطاني

*- مخبر التراث والدراسات اللسانية

*- جامعة الشاذلي بن جديد الطارف

* s.soltani@univ-eltarf.dz

تاريخ القبول: 2025/11/02

تاريخ الإرسال: 2025/09/25

الملخص:

نضطلع من خلال هذه المداخلة للحديث عن الأبعاد الأنثروبولوجية في الشعر الشعبي الجزائري الحديث لتحديد التغير الثقافي والخصائص المتشابهة بين الثقافات في هذه الإبداع الشعبي. وبالتالي تهدف هذه المداخلة إلى الوقوف على جملة من الأغراض المعرفية من أهمها الكشف عن الخلفية الأنثروبولوجية للشعر الشعبي الجزائري الحديث، مع إستكناه الرموز الموظفة في الشعر الشعبي وفق رؤية أنثروبولوجية. وانطلاقا من هذا يمكن طرح الإشكاليات التالية:- ما هي الأبعاد الأنثروبولوجية التي أنتجها الشعر الشعبي الجزائري الحديث موضوع الدراسة؟ وما الخلفية الأنثروبولوجية للرموز الموظفة في هذا الإبداع الشعبي؟.

الكلمات المفتاحية: الأبعاد؛ الأنثروبولوجية؛ الشعر؛ الشعبي؛ الجزائري؛ الحديث.

Abstract:

we undertake to discuss the anthropological dimensions of modern algerian folk poetry in order to determine cultural change and the similar characteristics between cultures in this folk creativity. Therefore, this intervention aims to address a number of cognitive objectives, the most important of which is revealing the anthropological background of modern algerian folk poetry, while exploring the symbols employed in folk poetry according to an anthropological perspective. Based on this, the following questions can be posed:

-What are the anthropological dimensions produced by the modern algerian folk poetry under study ? what is the anthropological background of the symbols employed in this popular creation ?

Keywords: dimensions; anthropology; poetry; folk; Algerian; modern.

مدخل:

يعد الأدب الشعبي وعاء فنيا يختزل تجارب الأمة وإبداعاتها على مر العصور، فهو تلك الأشكال الفنية التي ابتدعتها العقلية الشعبية المبدعة متوسلة بالكلمة الشعبية البسيطة للتعبير عن آمالها وأحلامها، وأفراحها وأحزانها. فهو إذن تجل صادق لروح الجماعة الشعبية وإبداعها الجمعي، فهو يشكل منظومة فنية نشأت من رحم الحياة اليومية، ومواقفها المتعددة.

وكما قلنا فهذا الأدب ليس نتاج فرد بعينه، بل هو حصيلة جماعية لتراكمات فكرية وثقافية تعاقبت عليها الأجيال، وعبرت من خلالها عن تجاربها ومشاعرها وتطلعاتها للحياة. وعلى هذا الأساس فهو جزء لا يتجزأ من هويتنا بما فيه من رؤى وأفكار وخبرات ومعارف. والشعر الشعبي جزء من هذه الإبداعات الشعبية العفوية، ونمط من الأنماط الثقافية الشعبية، فهو وسيلة لمعرفة الواقع الاجتماعي والنفسي للإنسان في مختلف مراحل حياته، والكشف عن مختلف التمثلات الثقافية التي أنتجها الوعي الإنساني. وترجم من خلاله تجربته الإبداعية المعاشة في قالب فني مفعم بالمشاعر الجياشة والأحاسيس الفياضة، هذه القوالب الفنية التي يستوحها الشاعر الشعبي من بيئته الاجتماعية وثقافته المكتسبة، ليعمل خياله حتى يخرج شعره من نمطية التقرير المباشر إلى منحه ديناميكية تحلق بالمتلقي أو القارئ إلى آفاق رحبة، وعوالم لا مريئة تخرجه من الواقع حتى يتمكن من إيصال تجربته الشعورية المعاشة.

ولهذا يعد الشعر الشعبي مجالا خصبا وثريا للدراسة والبحث في أغواره والكشف عن دلالاته ومضامينه الخفية على صعيد ليس بالضيق أو المحدود، لأن الخوض في مجال الشعر الشعبي ليس بالأمر الهين أو السهل، ولهذا فقد فاهتم بدراسته العديد من دارسي الشعر العربي، وأفاضوا في الحديث عنه والتنظير له، باعتبارها أداة الشاعر التعبيرية التي يجتمع فيها الإبداع بالخلق الحر.

ولهذا أبدع شعراؤنا الشعبيون في قصائدهم وتفاوتت الأغراض الشعرية لديهم بين الوضوح والتعقيد، ولهذا نلمس في قصائدهم عمق فكري كبير فيه آثار التعقيد الفلسفي والتأمل المنطقي للوقائع والأحداث، إلا أن هذا لا يمنع القول أنهم قدموا لنا لوحات فنية تعلوها مسحة فنان يدرك جيدا قيمة الكلمة وسرها الوجودي.

ومن هنا ارتأينا أن نقوم بدراسة ثلثة من الأشعار الشعبية الجزائرية لشعرائنا الشعبيين للكشف عن مختلف الأبعاد الأنثربولوجية وتمثلاتها داخل النص الشعري الشعبي، لنميط عن جانب مهم في الشعر الشعبي الجزائري الحديث ومدى أهميته وما يستكنه من قراءات متعددة تبعث على الكشف عن خباياه وإزالة اللبس والغموض عن محتواه وهذا راجع إلى أن كل منطقة من الوطن الجزائري لها مفردات ومصطلحات خاصة لا بد من شرحها لكشف عن حمولاتها المعرفية.

1- مفهوم الأبعاد الأنثربولوجية:

إن عبارة الأبعاد الأنثربولوجية تستدعي بالضرورة تحديدا لمفهوم الأنثربولوجيا، وهذا نظرا للأهمية الاجتماعية والثقافية والعلمية لهذا علم الذي يجمع الباحثون الأنثربولوجيون على أنه علم حديث إذا ما قيس ببعض العلوم الأخرى كالفلسفة، والطب وغيرها، إلا أن البحث في شؤون الإنسان والمجتمعات الإنسانية قديم قدم وجود الإنسان على سطح الأرض.

1.1- الأنثربولوجيا (المصطلح والمفهوم):

يعد مصطلح الأنثربولوجيا من المصطلحات الغامضة والمتشعبة الدلالة التي تستعصي على الفهم والإدراك، نظرا للغموض الشديد الذي يكتنف هذا المصطلح، ولهذا فقد اختلف الباحثون والدارسون في مختلف التخصصات المعرفية من تحديد مفهومها، نظرا لتعدد مفاهيمها واتجاهاتها.

فلفظة الأنثربولوجيا هي كلمة إنجليزية مشتقة من الأصل اليوناني المكون من مقطعين: أنثربوس ومعناه الإنسان ولوجوس ومعناه علم، وبذلك أصبح معنى الأنثربولوجيا من حيث اللفظ علم الإنسان؛ أي العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو كائن عضوي حي يعيش في مجتمع تسوده نظم وأنساق اجتماعية في ظل ثقافة معينة، ويقوم بأعمال متعددة، ويسلك سلوكا محددا. وهو أيضا العلم الذي يدرس الحياة البدائية والحياة الحديثة المعاصرة، ويحاول التنبؤ بمستقبل الإنسان معتمدا على تطوره عبر التاريخ الإنساني الطويل، لذا يعتبر علم دراسة الإنسان علما متطورا يدرس الإنسان وسلوكه وأعماله.⁽¹⁾

ويرى إدوارد تايلور أن الأنثروبولوجيا هي "الدراسة البيوثقافية المقارنة للإنسان، إذ تحاول الكشف عن العلاقة بين المظاهر البيولوجية الموروثة للإنسان، وما يتلقاه من تعليم وتنشئة اجتماعية" (2)

فالأنثروبولوجيا تدرس الجانب الثقافي والاجتماعي للإنسان، كما تهتم بالعلاقة القائمة بين ثقافة الإنسان والمجتمع الذي يعيش فيه، وتبين التأثيرات المتبادلة بين الفرد ومجتمعه، فهو يتأثر بما حوله كما يؤثر في غيره وفي المجتمع الذي ينتمي إليه.

وبالتالي فإن مصطلح الأنثروبولوجيا دراسة للإنسان في أبعاده المختلفة الاجتماعية والثقافية والدينية، فهي علم يجمع بين ميادين ومجالات مختلفة عن بعضها البعض.

وفي هذا المجال تذهب الباحثة "مارجريت ميد" إلى القول "نحن نصف الخصائص الأساسية البيولوجية والثقافية للنوع البشري عبر الأزمان وفي سائر الأماكن، ونحلل الصفات البيولوجية والثقافية المحلية كأنساق مترابطة ومتغيرة وذلك عن طريق نماذج ومقاييس متطورة، كما نهتم بوصف وتحليل النظم الاجتماعية والتكنولوجية، وتعنى أيضا ببحث الإدراك العقلي للإنسان وابتكاراته ومعتقداته ووسائل اتصالاته، وبصفة عامة نسعى نحن الأنثروبولوجيين لربط وتفسير نتائج دراستنا في إطار نظريات التطور أو المفهوم الوحدة النفسية المشتركة بين البشر". (3)

إن مفهوم الأنثروبولوجيا بهذا التصور المعرفي مفهوم واسع، يكشف عن مدى اهتمام هذا العلم بالإنسان في كل جوانب حياته، كالجانب البيولوجي والثقافي والاجتماعي والنفسي...إلخ، بالإضافة إلى عادات وتقاليد الشعوب، وتدرس كل ما يتعلق بالسلوك الاجتماعي.

كما يعرفها كلود ليفي شتراوس بقوله: "إن الأنثروبولوجيا تهدف إلى معرفة كلية وشمولية للإنسان في علاقته بامتداداته التاريخية ومحيطه الجغرافي" (4)

بمعنى أنها تهتم بالإنسان من جميع الجوانب والمجالات لمعرفته معرفة شاملة كلية. وتأسيسا على ما تقدم، فإن الأنثروبولوجيا هي العلم الذي يدرس الإنسان، في الماضي والحاضر، وكما يدرس أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بينه وبين الكائنات الحية الأخرى وكذلك بين أخيه الإنسان، لكي يفهم هذه الكيانات الهائلة والمعقدة من الثقافات عبر التاريخ، وفي الوقت ذاته تدرس السلوك الإنساني ضمن الإطار الثقافي والاجتماعي بوجه عام، فلا تهتم

بالإنسان الفرد وإنما تهتم بالإنسان الذي يعيش في جماعات وأجناس وتدرس الناس في أحوالهم وأفعالهم.

2- الشعر الشعبي الجزائري بين إشكالية المصطلح والبعد المفاهيمي:

يعد الشعر الشعبي شكلا من أشكال التعبير في الأدب الشعبي جادت به قرائح المبدعين الشعبيين، ولهذا فقد حظي باهتمام كبير من طرف الباحثين والدارسين فتجاوزته العديد من التخصصات الأدبية والفنية والاجتماعية والثقافية، فشكل بذلك ميدانا خصبا وثريا نظرا لثراء مادته وارتباطها بالجانب الإنساني الهادف.

كما شكل حقلا خصبا للدراسات الأنثروبولوجية، بحيث يصور لنا الواقع المعيشي للإنسان من جميع النواحي الاجتماعية، السياسية، التاريخية والنفسية... إلخ، وينقله لنا في حلة جمالية فنية يمتزج فيها إبداع المؤلف مع مدى تأثره بالظروف الداخلية والخارجية المعاشة وهذا لنقل الأفكار والتأثير في الآخرين.

1.2- الشعر الشعبي الجزائري وإشكالية المصطلح:

تعددت تسميات هذا المصطلح بين الباحثين الأكاديميين والدارسين وتباينت آراءهم تبعاً لما شاع في بيئاتهم المحلية من تسميات ومصطلحات، وكذلك بحسب اختلاف مشارهم الفكرية واللغوية، التي ينهلون منها معارفهم، بالإضافة إلى ميولاتهم الإيديولوجية والمرجعيات الثقافية التي يعتنقونها.

ومن التسميات التي المقترحة من طرف الدارسين إطلاق تسمية الشعر الشعبي على النوع الذي يجهل قائله، كما ذهب بعضهم إلى القول بأنه الشعر الملحون، كما استعمل بعضهم مصطلح الزجل الذي راج في بيئة من البيئات، ولكنه لا ينطبق على شعر بيئة أخرى لاختلاف الأوضاع الثقافية والسياسية التي تؤثر في التعبير الشعبي،

وقد تبنى الباحث "التلي بن شيخ" تسمية الشعر الشعبي، لأن هذه التسمية تتطابق مع مفهوم الطبقات الشعبية لهذا اللون من التعبير، أكثر من غيره من المصطلحات الأخرى، مثل الملحون والعامي والزجل وبذلك فهو يختلف مع المرزوقي وعبد الله الركيبي في الرأي.

وهناك من يطلق عليه بالشعر الملحون حيث حقق هذا المصطلح رواجا واهتمام الباحثين لأنه أكثر شيوعا وشهرة، وهو الرأي الذي تبناه المرزوقي، حيث يرى أن الشعر

الملحون أعم من الشعبي، إذ يقول "إن الشعر الملحون الذي نريد أن نتحدث عنه اليوم فهو أعم من الشعر الشعبي، إذ يشمل كل شعر منظوم بالعامية، سواء معروف المؤلف أو مجهوله، وسواء دخل في حياة الشعب فأصبح ملكا له، أو كان من شعر الخواص، وعليه فوصف الشعر بالملحون أولى من وصفه بالعامي، فهو من لحن يلحن في كلامه أي أنه نطق بكلام عامي أو بلغة عامية غير معروفة"⁽⁵⁾

أما الباحث "عباس الجراري" فقد اقترح مصطلحا آخر مخالفا لمصطلحي الشعبي والملحون ليطلق على هذا الشعر تسمية الزجل إذ يقول: "إننا نفضل إطلاق الزجل على كل أنواع الشعر الشعبي المغربي، وندعو إلى هذه التسمية بدلا من أي تسمية أخرى تطلق عليه مهما بلغت من الذيوع والانتشار"⁽⁶⁾

ومهما تضاربت الآراء واختلفت تسميات هذا الفرع من الأدب الشعبي فإن التسمية الجامعة للمفهوم هو الشعر الشعبي سواء ما كان معروف المؤلف أو مجهوله فالمهم أن يكون شائعا ومنتشرا بين الطبقات الشعبية البسيطة، وأن يكون معبرا عن مشاعر وهموم وآمال هذه الطبقات، كما يجب أن يكون موجها إليهم ومعتمدا على لغتهم متضمنا لاهتماماتهم ومعالجا لهمومهم ومشاكلهم.

2.2 البعد المفاهيمي للمصطلح:

الشعر الشعبي إبداع شعبي وهو عبارة عن قصائد منظومة لها إيقاع وأسلوب عامي، أحيانا تصاحبه الموسيقى، وكل فرد في المجتمع يتذوقه ويسهم في حفظه ونشره شفويا، تفنن في إبداعه ثلة من الشعراء الشعبيون، كما تنوعت أغراضه ومضامينه .

ويتميز الشعر الشعبي بمحافظته على تقاليد القصيدة العربية الفصيحة، فهو لم يخرج عن الأغراض والموضوعات التي عالجهها الشعر العربي القديم كالرثاء والفخر أو المدح والغزل وغيرها من الأغراض المعروفة في تاريخ الشعر العربي القديم.

كما أن مضامينه مستمدة من بيئة حضرية وشعرهم يتسم بالرقّة واللطافة والتضرع والحنين لله عز وجل ونبيه الكريم صلى الله عليه وسلم.

3- الأبعاد الأنثربولوجية في الشعر الشعبي الجزائري الحديث دراسة في نماذج مختارة :

يحظى النص الشعري الشعبي بمكانة رفيعة لدى الدارسين باعتباره جزءا هاما من تراث وأصالة هذه الشعوب يختزل من خلالها تجارب الأمة، كما يشكل رصيда معرفيا يزخر بجزء هام من التراث الشعبي الجزائري، ولا يمكن أن نفصل التطور التاريخي للشعر الشعبي عن عقلية الشاعر الشعبي الذي كان بمثابة السفير بكل معنى الكلمة، حيث واكب مختلف التطورات والأحداث الاجتماعية والثقافية والسياسية والتاريخية ونقلها لنا عبر شعره، كما أبدع الشعراء في مجال الشعر الشعبي ونوعوا في أغراضه من وصف وفخر وغزل وثناء.

إنّ حضور النص الشعبي كان أكثر شمولية من حيث تنوع موضوعاته، وثرائه الشعري وواقعيته واهتمامه بالأحداث مفصلة، كما كان أكثر مرونة في رصدها والتعامل معها، ومن هنا شكل الشعر الشعبي مؤسسة ثقافية متجددة.

لذلك نجد الكثير من القارئین يغوصون في أعماق الشعر لأنهم أحسوا بأنه موجه إليهم ويعنيهم، والشاعر العظيم هو القادر على تصوير أحزان الآخرين والتعبير عنها قبل أن يصور أحزانه ويعبر عنها، فكذلك يعمل الشعر على الولوج إلى أعماق الواقع المهم، ويعمل على تفجيده والكشف عن خباياه الخفية ومزجه بالخيال ليكون بعد ذلك صورة مكتملة الأجزاء. "فالكلمة تصبح شاعرة (ولو كانت عامية) حين تلاءم السياق وتتفاعل مع غيرها وتتأجج حرارتها بانفعال الشاعر..."⁽⁷⁾

ولعل محاولة استقراء الشعر الشعبي من منظور أنثربولوجي تسهم في الكشف عن جميع الجوانب الثقافية في حياة الإنسان، وهذا ينم على مدى تنوع الثقافات المسهمة في تكوين بنية الخطاب الشعري، فالنص الشعري الشعبي يحظى بقراءات متعددة لما فيه من خلفيات فكرية تراكمت على مر الحضارات الإنسانية.

بحيث يعتبر الأنثربولوجيين الرموز مقولة ثقافية ويهتمون بدراسة الرموز في المجتمعات البدائية للتعرف على محددات التفكير الإنساني وتصنيف الرموز وتحليل محتواها الثقافي.

ومن هنا تعددت أشكال ظهور المتخيل الشعبي وأدواته بالنسبة للشاعر الشعبي الجزائري، فيوسع بذلك إلى أساليب بنائية تسهم في رسم صورة المتخيل الشعبي لديه ولعل أهم هذه الأشكال الرمز ولاسيما أن هذا الأخير يؤدي دورا كبيرا ومهما في بناء كثير من قصائد

الشعراء الشعبيين. فلا عجب أن تتعدد الرموز الدالة التي يوظفها شعراؤنا الشعبيون على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم الفكرية والمعرفية، فشعرنا الشعبي مليء بالصور أو النماذج الحية التي منها ما اتصل بالإنسان أو بالطبيعة أو بالدين وهذه النماذج أصبحت مصدر إلهام الكثير من الشعراء الشعبيين.

كما نجد الشاعر الشعبي قد استعان بنمط من التعابير التي تنحو به إلى توظيف المجال الحسي الطبيعي أي عالم الطبيعة، فهذه الرموز التي يوظفها الشاعر أصبحت بمثابة صور متعالية وأنماط عليا يتبعها الشاعر وغيره من الشعراء الشعبيين على اختلاف تجاربهم الشعرية وأنها لاشك لم تتأت من استفادة تلقائية من هؤلاء الشعراء من الواقع والطبيعة بل لها أبعاد أو خلفيات دينية وحضارية تكرست عبر السنين.

ومن بين هذه النماذج الشعرية التي منا بدراستها دراسة أنثربولوجية نجد:

1.3- البعد الأنثربولوجي للحمام:

كثيرا ما نجد الشعراء على اختلاف مشاربهم وأفكارهم يوظفون في أشعارهم طائر الحمام، وذلك لما له من خلفيات أنثربولوجية ارتبطت بالمخيلة الشعبية، ومن بين هؤلاء الشعراء نجد الشاعر الشعبي "الشيخ السماتي" ⁽⁸⁾ يستحضر طائر الحمام في قصائده الشعرية ويظهر ذلك في حديثه عن طائرته القمري الذي يكنيه بمرسولي والذي يكلفه بمهام إيصال أخباره للأهل والأحباب بعد سجنه، فيقول: ⁽⁹⁾

يَا مَرْسُولِي نَحْشَمِكْ فِي ذِي الْمَرَّةِ	أَقْصَبَ لِي خَاطِرِي مَا جَاءَ النُّومُ
عُودُ عَيِّي الْخَبَرِ فِي التَّقْصِيرَةِ	مِنْ شَوْفِكَ ذَا الْكَافِ عَيِّي صَارَ حُمُومُ
تَوْصِلْ لِي لِأَوْلَادِ لَغْرِيْبٍ صَقُورَةَ	وَاسْتَبْرِكْ بَ زَادُهُمْ خَيْرَاتُ نَعُومُ
تَوْصِلْ لِي رَاهُ شَايِعٍ فِي الصَّحْرَا	سِي الْحَشَانِي تَقْصِدُهُ ظَاهِرٌ مَعْلُومُ

فالشاعر يعاني من آلام نفسية وضيق في خاطر فيطلب الفرج وزوال المحن، ولهذا خاطب الحمام واستدرجه لتكليفه بمهام عدة، وقد اتخذ من حمامه القمري صديقا له مقربا من شخصه الذي يشكو له آلامه وهمومه من الذين سجنوه وأسروه ظلما.

ويغير الشاعر خطابه مع حمامه القمري من حالة الغضب والاستنفار إلى الاستعطاف

والترث، حيث يرسل إليه توسلاته بأن يساعده في محنته ويشاركه همومه، فيقول: ⁽¹⁰⁾

وَيَاكَ أَنْتَ مَوْلَى الْمُرَايَا فِي لَطِيَارِ	إِذَا دُرْتُ الْخَيْرَ مَا زِلْتُ تَنَالُو
أَنَا قَصْدِي فِيكَ لِمَقَامِ الْمُخْتَارِ	بَلِّغْ مَا نُوَصِّيكُ إِلَي تَعْدَاوُ

عَتِي رَاهُ بُعِيدُ جُوبَةِ وَالْشَفَارُ دُونَهُ طَاخُ الْغَيْمِ نَيْلُ بَكْحَالُو

وفي نموذج شعري آخر يوضح الشاعر الشعبي "محمد بلخير" ⁽¹¹⁾ في قصيدته الشعبية المعنونة "سلاك المرهون" * المعاناة النفسية التي تكبدها جراء نفيه عن وطنه، والنأي به إلى ما وراء البحار من طرف المستعمر الغاشم الذي سلبه أعز ما يملك في حياته ألا وهو وطنه، وأهله، وأحبابه، وكل ذكرياته التي قضها منذ نعومة أظفاره، وهذا ما أحدث شرخا بشخصيته التي تملكها الضعف والتذمر نتيجة انحباس النفس وضيقها جراء المحنة التي عصفت بحياته، فهذه المعاناة التي اختلجت كيانه جعلته يتذكر كل لحظة قضها في وطنه بين حنان أهله وصوت جواده الذي كان نغمة ألحانه ورفيق دربه في ساحات الوغى.

ولعل تحلي الشاعر بالإيمان القوي الذي لا يتزعزع، فهو في قرارة نفسه يعلم بأن الله عز وجل قادر على كل شيء، فهو يشكو إلى الله القادر على كل شيء ألمه ومعاناته جراء ما يلاقيه من حياة السجن التي لا تطاق، فيعتمد إلى ذكر قدرته في إحياء الموتى، ويستحضر في شعره قصة طه ومساعدة الحمام والعنكبوت له، ثم يشير إلى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام وكيف نجاه الله من النار التي كانت بردا وسلاما.

وتظهر الأبيات التوسل الصادق للشاعر الذي ضاق مرارة الغربة، فالسجن بظلمته ووحشته التي تبعث على السأم والمرارة، فكل يوم يمر عليه كأنه سنة فلقد اشتاق الشاعر إلى موطنه البيض فهو مثال وقودة للرجل الشهم الذي ساند وطنه بوفائه وعدم استكانته للعدو.

فيقول الشاعر محمد بلخير في قصيدته "سَلَاكُ الْمَرْهُونُ" ⁽¹²⁾:

سَلَاكُ الْمَرْهُونُ مِنْ حَبْسِ الْكُفَّارِ قَادِرُ كُلِّ غَرِيبٍ لِبِلَادُوتِهِ

فَرَجَّ يَا رَبِّي عَلَى مَنْ ضَاقَتْ بِهِ

سَلِكْنِي مَا يَنْ سَدَّ وَسَدَّ أَحْجَارِ وَالْمَغْبُوتُ يُشُوفُ لَوْ كَانَ بُعَيْنِي

سَلِكْنِي مِنْ ضَبِيقِ الْأَعْدَاءِ وَالتَّزْيَارِ قَادِرْتُ بَنِي الرِّيحِ وَالْكَافِ نَوْطِي

سَلِكْنِي كَيْمَا سَلِكْتُ طَهَ مِنَ الْغَارِ الْحَمَامَةُ وَالْعَنْكَبُوتُ بَنَاؤَا عَلَيْهِ

سَلَكْتُ إِبْرَاهِيمَ مِنْ لَهْفَاتِ النَّارِ بَرْدًا وَسَلَامَ حَاجَةٍ مَا تَأْذِيهِ

كما نجد الشاعر الشعبي "محمد بلخير" يستعطفها ويتوسل إليها أن تحمل رسائله إلى المحبوبة ومرة أخرى يستعطفها لتكون رسوله إلى حبيبته، تأتيه بما يسره، يقول في قصيدته:

(13)

يَا مَرْقُومَ الرِّيشَاتِ نَحْشَمُكَ يَا حَمَامَ لِيهَا جَمَلٌ وَاسِعٌ ————— اني

ثم يطلب منها ألا تطيل عليه في الرد، فيقول في قصيدة "يَا لَزْرُقُ وَلَدُ لِحَمَامٍ"⁽¹⁴⁾

يَا لَزْرُقُ وَلَدُ لِحَمَامٍ اد وصاية كَأَنَّكَ مَرِيضٌ لِلْعَرَبِ

لَا تَبْطُلْ بِالْوَجَابِ رَدُّهُ نَايَا حَدِثْ خَيْرَةَ صِفَةِ الذَّهَبِ

ارتبط اسم الحمام في عصرنا الحالي بالحرية والسلام واتخذ رمزا لكل هذه الدلالات التي طالما تعلق بها الإنسان، لكن هذا التعلق وجد منذ زمن قديم، فكانت حمامة سيدنا نوح عليه السلام، و"يقال لها أيضا حمامة السفينة، وهي التي أرسلها سيدنا نوح عليه السلام مكان الغراب الذي لم يعد إليه لينظر هل غاض الماء وبدا من الأرض شيء، فرجعت إليه بالبخارة.

وصار يضرب بها المثل في الهدوء والأمن والهداية ونقل الأخبار والمعلومات من مكان إلى مكان فجعلوها مستودع صدق وأمان على أسرارهم تنقلها بأسرع ما يمكن فهي الرسول والمبشر ويضرب بها المثل كذلك في الإقامة والاستدامة يقال "طوق الحمامة".

الحمامة كما قلنا رمز السلام منذ مشهد سفينة نوح حيث كانت الحمامة الممسكة بمنقارها غصن الزيتون رمز السلام، وعرفت هذه الرمزية في عصرنا حظا كبيرا، ويكفي الإشارة إلى حمامة بيكاسو والإعلانات، والطوابع البريدية، إذ نجده يحدد مهمة حمامه وهي نشر خبر أسره في مدينة الأغواط، ومعاناته آلام السجن والغربة والأوضاع المزرية وكأن الشاعر يرسل صبيحة فزع واستغاثة من أهله وعشيرته حتى تنظر في قضيته وتنقذه من أسره، الحمامة كذلك طائر أفروديت عند الإغريق وفينوس عند الرومان، كما تسمى طائر عشتار، كما أصبحت الحمامة عند المسيحيين تدل على الروح الصاعدة للفردوس.⁽¹⁵⁾

2.3 – البعد الأنثروبولوجي للشمس:

نجد للمرأة في شعرنا الشعبي المكانة نفسها التي حظيت بها في الشعر العربي القديم حيث "ربط الإنسان الخصوبة في المرأة بسر الخصوبة في الأرض في المجتمعات الزراعية القديمة، لذلك كانت لها مكانة خاصة في شعرنا الشعبي بصفة خاصة.

فقد أنجب التصوف الجزائري عددا هائلا من الأقطاب، كما برزت أسماء نساء جزائريات عارفات بدين الله منهن من تقلد منصب المشيخة، والقصائد التي بين أيدينا للشاعر الشعبي "ابن قيطون"⁽¹⁶⁾ التي جاء يثني فيها بالمكانة العالية التي تحظى بها زينب ابنة شيخ زاوية الهامل التي أدارت إحدى أهم الزوايا وتركت بصماتها على التراث الروحي للبشرية في الحفاظ على الروح الدينية، والنهوض بتعاليم الدين الإسلامي السمحة. فهي من الشخصيات الدينية الصوفية المهمة في تاريخ الجزائر التي عملت جاهدة على الحفاظ على تماسك المجتمع. فأصبحت بذلك زاوية الهامل مركزا هاما من مراكز العلم بالجزائر، ومحطة من أهم المحطات التي لا يستطيع العلماء المرور بها دون التوقف وزيارة المقام الهاملي.

فنجد الشاعر يثني على هذه المرأة الشريفة النسب ويرمز لها بالشمس لعلو مكانتها من بين الأعياد والمقصود بها الجمع من النساء، فهي كالشمس بنورها المتوهج الذي يشع بقوة. وفي هذا يقول يقول ابن قيطون في الرمز للمرأة زينب الهاملية بالشمس:⁽¹⁷⁾

جَبَاتٌ عَن لُغْيَادٍ شَمْسٌ طَلَعَتْ ضِيَهَا وَقَادُ
يَا صَاحِبِي وَلَعَادُ ذَا الزَّيْنِ لَا شَافَتْو عَيْنِي

فالشمس ارتبطت في أساطير العرب القديمة بالتقديس والخصوبة والأمومة وبقيت هذه الصورة مترسبة في الخيال الشعبي العربي تتبدى بين الفينة والأخرى وتمارس فعلها السلطوي. كما أن الشمس كانت معبودة قديما كإله أو على الأقل معبرة كرمز لألوهة هي جزء من مجمع الآلهة.

وللشمس رمزية جنائزية في أوقيانوسيا أنها موصلة الأرواح، فالأموات هنا يحملون بزوارق شمسية ففي مصر القديمة كان للشمس جانب مظلم يسفرها في قارب تحت الأرض حيث كان الفرعون الميت يرافقها ليعاود تولده معها⁽¹⁸⁾.

فالشمس كانت مقدسة عند جميع الشعوب القديمة، وهذا ما يفسر لنا أنه في مناطق كثيرة في الجزائر نجد الأطفال الصغار إذا وقع سن لهم رموه في عين الشمس وقالوا: "هاكي يا شمس سنة الحمار وأعطيني سنة الغزال" وهذه الممارسات لم تندثر بل مازالت موجودة في كافة المجتمعات إلى يومنا هذا تمارس .

3.3- البعد الأنثربولوجي للنخلة:

كما نجد أن للنخلة حضورا قويا في الشعر الشعبي الجزائري، فيستحضرها الشاعر "ابن قيطون" وذلك في الرمز لزينب بالنخلة العالية علو الجبارة التي تنتج أجود وأصفى أنواع

التمور (دجلة نور) وهذا الإطراء إنما دلالة على قيمة زنب العالية في الوسط الاجتماعي وللدور الكبير الذي تضطلع به لخدمة المجتمع، فيوظف هذا الرمز المضمخ بالدلالات الإيحائية ليدل على الشموخ والعلو والرفعة التي تتمتع بها زنب ابنة الشيخ محمد بن بلقاسم الهاملي .

يقول "ابن قيطون" في قصيدته: (19)

يَا لَالَةَ زَيْنَبْ دَقْلَةَ نُورِ الْعَالِيَةِ تَعْجِبُ
الَّتِي يَجِي عَاقِبُ يَقُولُ ابْخِيرِ عَجَبْتَنِي
جَبَّارَةَ الْحَرَّةِ وَلَى دَجْلَةَ نُورِ الْمَشْهُورَةِ
عَنْ سَيْلٍ فِي مَجْرَى كِي حَفَلَتْ بِثَمَارِهَا تَغْيِي

يرمز الشاعر ابن قيطون إلى المرأة زنب ابنة شيخ زاوية الهامل بالجبارة وهي النخلة العالية المتفردة، والنخلة كما هو معروف رمز قديم يدل على الإنتاج والوفرة وقيمة النخيل في الوسط الشعبي ليست نابغة من فراغ، وإنما لها خلفية دينية وجذور تاريخية قديمة هذه النخلة الشجرة الكريمة المعطاء التي قال عنها النبي صلى الله عليه وسلم "أَكْرَمُوا عَمَتَكُمْ النَخْلَةَ فَإِنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ فَضْلَةِ آدَمَ وَلَيْسَ مِنَ الشَّجَرِ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَجَرَةٍ وُلِدَتْ تَحْتَهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عُمْرَانَ فَأَطْعَمُوا نِسَانَكُمْ الْوَلَدَ الرَطْبُ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَطْبًا فَتَمْرٌ" (20)

ففي القرآن الكريم ورد ذكر النخيل عدة مرات في أكثر من سورة منها سورة البقرة، سورة الأنعام، سورة النحل. وذكر أيضا في سورة مريم عندما استطلعت العذراء مريم يوم أن جاءها المخاض تحت جذع النخلة فقالت: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا فَتَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ سَرِيًّا وَهَازِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تَسَاقُطَ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ (سورة مريم، الآيتان: 23، 25).

فالنخلة منها الذكر والأنثى وهي تشبه الإنسان ولاسيما أنها تشبه المرأة قلبا وقالبا، بالإضافة إلى كونها ترمز إلى الخصوبة، فإنها ترمز أيضا إلى الأمومة والعطاء فهي التي أعطت مريم البتول الأكل، وتفيأت تحتها الظل حين جاءها المخاض، كما أن للتمر في حياة الإنسان فائدة فهو غذاء ودواء حيث كان من أفضل الأطعمة التي وصفها الرسول صلى الله عليه وسلم وبين كثير من فوائده "إن التمر يذهب الداء ولا داء فيه، وإنه من الجنة وفيه شفاء".

وتتضح رمزية النخلة في المستوى الثقافي والأنثروبولوجي في العديد من الصور فهي رمز الحياة، ومما زاد عن قيمة هذا الرمز أن النخلة كانت في القديم من الأشجار المقدسة فقد وحد الفينيقيون بين النخلة التي اعتبرها الساميون شجرة الحياة في جنة عدن وبين آلهة الخصب عشتروت كما كانت النخلة هي الشجرة المقدسة عند الكاهنة والشاعرة العبرية دبورة وكذلك من التمر جاء اسم الإله تامور الذي عثر على آثاره في جزر البحر المتوسط التي استعمرها الفينيقيون⁽²¹⁾.

كما كانت مقدسة عند المصريين و الجزيرة العربية و نجد لها حضورا رمزيا قويا في الشعائر والطقوس الجنائزية لارتباطها بالموت والانبعاث قديما وحديثا فإن وضع أغصان خضراء وأسعف وجريد النخيل هي من المعتقدات القديمة التي يعتقد أنها ترطب جو القبر الموحش والجاف، ونحن نعلم أن رمزية اللون الأخضر رمز للخصب والحياة والربيع. كما أنها إحدى التماثيل المألوفة لشجرة الحياة في الشرق، ولقد كانت بنوع ما شعارا وطنيا عند الفينيقيين وتحدد موضوع النخيل طويلا في قائمة الزينة الفينيقية وكانت عند الرومان تحمل أثناء المواكب الاحتفالية للانتصارات فهي رمز للنصر العسكري⁽²²⁾.

كما شبه بياضها بقلب النخلة المتميز بشديد البياض أو بالثلج الذي غطى السهل والمنخفض والمرتفع. ورمز اللون الأبيض كما هو معروف يدل على الصفاء والسلام وهو في الإسلام لون رداء الإحرام والطواف حول الكعبة، وهو في القرآن الكريم رمز لأصحاب الجنة وهو عند العرب رمز للطهارة إنه لون رداءهم الديني و لون راية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

يقول ابن قيطون في هذه الأبيات: ⁽²³⁾

لِعُضَادٍ مِنْ جَمَّارٍ وَلِي ثُلُجٍ صَبَّ عَنْ لَوْعَارٍ
غَطَّى جِبَالَ أَكْبَارٍ اسْهَلْ وَوُطِيهِ أَوْ كَيْفَانِي

4.3- البعد الأنثروبولوجي للقمر:

ومن أهم هذه الصور التي اكتسبت صفة الرمز وصف الشاعر للمرأة حيزية الداودية صاحبة القصة المشهورة ب"مرثية حيزية" وصفا حسيا متكاملا، فقد تناول كل عضو من أعضائها حيث توسم بالجمال والتفرد، ويربط كل عضو من أعضائها بصورة معينة مستمدة من البيئة الطبيعية ومن الثقافات المختلفة، حتى تتمثل المرأة أمامنا أنموذجا من نماذج الجمال في عرف الشاعر.

فنجذ الشاعر يشبه خد حيزية بالقمر في ليلة طلوع البدر ووضوحه، فنجد في ديوانه يرمز لحيزية بالقمر فيقول: (24)

الْقَمَرُ الِلي بَانَ شَعْشَعٌ فِي رَمَضَانَ
جَاءَ المِيسَانَ طَالِبٌ وَدَاعُ الدُّنْيَا

رسم لنا الشاعر من خلال هذه الأبيات لوحة فنية بأبعادها الجمالية، فشبه جمال خد حيزية بالقمر المشعشع الذي يظهر في رمضان كل سنة، ويغيب عن نهاية الشهر، فنجد نوعاً من التقابل بين هاتين الصورتين، صورة وفاة حيزية ووداعها للعالم التي عاشت لفترة ثم توفيت وصورة هلال رمضان الذي يأتي لمدة شهر ثم يغيب.

فالقمر هو كوكب إيقاعات الحياة، فهو يولد وينمو ويتناقص ويموت خلال ثلاثة أيام ثم يعاود الولادة رمزته تمتد لكل ما يسيطر عليه أو يبدو أنه مسيطر عليه (المياه، المطر، النبات، الخصوبة)، ويلعب القمر دوراً كبيراً في هطول الأمطار في نظر الفلاحين، ويستند هؤلاء على المظاهرة القمرية ليقروا البدء بهذه الأعمال الزراعية.

إن موت القمر يفسر الدور الذي يلعبه في الحفلات التكريسية للمجتمعات البدائية، وفي العديد من الثقافات أن القمر ينسج وهو تحت شكل ألوهة. وفي الشرق القديم اعتقد الكثيرون أن القمر كان محل إقامة الموتى والقمر يرمز في آن واحد للموت والخصب، للنور والظلمة بواسطة وجهه كبدر كامل وقمر جديد (25).

كما نجد الشاعر الشعبي "ابن سهلة" ينحو منحى الشاعر "ابن قيطون" في رسم تجربته الشعرية، وذلك من خلال التكتيف الإيحائي الذي يترجم بصدق أحاسيسه وينقلها من العالم الواقعي المحدود والضيق إلى عالم متخيل مليء بالتصورات.

فنجده يشبه الحواجب بالأقواس وحدة النظر أو اللحظ بالسهم، وفي ذلك يقول: (26)

يَا شَيْهَةَ شُعَاعِ الْقَمَرِ وَالْمُشْتَرِي مَعَ الزَّهْرَةِ
مَضْرُورٌ مِّنْكَ مَا نَبَرَى سَاهِرٌ فِي الدَّاجِ حَزِينٌ

لقد استعان الشاعر بنمط من التعابير التلميحية فوصف جمال المرأة بشعاع القمر، وبالكواكب كالمشتري والزهرة التي ليس من السهولة على أي كان رؤيتهما إلا باستخدام المجهر أو المراصد الفلكية لرؤيتهما، فهو بذلك يرسم لوحة فنية بأبعادها الجمالية، وذلك بتوظيفه الجيد للرموز الإيحائية التي تدل على قدر هذه المحبوبة في نظر الشاعر ومكانته لديه.

فهذه الرموز التي يستلهمها الشعراء ويوظفونها في أشعارهم أصبحت بمثابة صور تشخيصية يتبعونها في وصف مختلف تجاربهم الشعرية، لما لها من مرجعيات دينية، وأسطورية، واجتماعية وحضارية منغرسه في ذاكرة اللاوعي الجماعي. ولما تضيفه على هذه القصائد الشعبية من روح جمالية وأسلوب فني راق.

خاتمة:

نصل في ختام هذه المقاربة التحليلية لنماذج من قصائد الشعر الشعبي الجزائري الحديث ببعدها الأنثروبولوجي إلى استخلاص جملة من النتائج من بينها:

- يشكل الشعر الشعبي الجزائري الحديث موروثا شعريا أصيلا، وهذا ما جعله يحظى باستجابة جماهيرية وبقبول عريض لدى المتذوقين للفن الشعبي الأصيل، نظرا لما تكتنزه هذه النصوص الشعرية من ثقافات مستوحاة من البيئة الطبيعية، التي يستلهم منها الشعراء مختلف الصور والنماذج للتعبير عن أفكارهم وتصوراتهم، لنسجها في قالب فني متميز .
- الأسلوب الفني الرائع الذي وظفه الشعراء لرسم تجاربهم الفنية المعاشة بأبعادها الأنثروبولوجية، فقد اعتمدوا على رموز طبيعية مستوحاة من البيئة البدوية، بالإضافة إلى الرموز الدينية المستمدة من القرآن الكريم، و الرموز الأسطورية التي مرجعها الحضارات القديمة.
- لقد ساهمت مختلف النماذج الشعرية الموظفة في إضفاء تنوع دلالي وإثراء موسيقي مجسدا قالبا فنيا جماليا ذو مسحة تأثيرية قوية على المتلقي.
- يبقى النص الشعري الشعبي نصا ثريا ينفث على قراءات عدة تجعل منه مادة خصبة لمختلف الدراسات والمقاربات التي تعمل على كشف خباياه، وإزالة اللبس والغموض عن محتواه.

*-الهوامش والإحالات:

- ¹. ينظر: عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2004م، ص 12.
- ². المرجع نفسه، ص 13.
- ³. ينظر: حسين فهم، قصة الأنثروبولوجيا، عالم المعرفة، الكويت، دط، دت، ص 14.
- ⁴. مصطفى تيلوين، مدخل عام في الأنثروبولوجيا، دار الفارابي، منشورات الاختلاف، بيروت، لبنان، ط 1، 2011م، ص 21، 22.
- ⁵. محمد المرزوقي، الأدب الشعبي، الدار التونسية للنشر، تونس، ط 5، 1967، ص 51.
- ⁶. عباس الجراري، الزجل في المغرب، مطبعة الأمنية، المغرب، ط 1، 1970، ص 54.
- ⁷. عبد القادر أبو شريفة وحسين لافي قزف، مدخل إلى تحليل النص الأدبي، دار الفكر، ط 4، 2008، ص 46.
- ⁸. الشاعر الشيخ السماتي: هو أحمد بن البوهالي بن عبد الرحمن الساسوي المعروف بالشيخ السماتي من شعراء الشعر الشعبي الجزائري، ولد سنة 1869 بواد الريم بولاية بسكرة، توفي سنة 1908.
- ⁹. إبراهيم شعيب، الديوان العاتي للشيخ السماتي مع إمارة العشق من المسار إلى الانهيار، مطبعة رويغي، الأغواط، ط 1، 2012، ص 200.
- ¹⁰. المرجع نفسه، ص 194.
- ¹¹. الشاعر محمد بلخير: محمد بن بلخير بن قدور ولد سنة 1835، كان مسقط رأسه منطقة تاغست بالواد المالح دائرة بوعلام، ومن من فرقة أولاد داود عرش الرزيقات، توفي حوال سنة 1906، ودفن في تيغست بمنطقة القناطر، ثم نقل إلى مقبرة الشهداء ببوعلام ولاية البيض.
- ^{*} قصيدة سلاك المرهون أو كما تعرف في بعض الدواوين الشعرية بسلاك المغبون.
- ¹². العربي بن عاشور، أشعار محمد بلخير (شاعر الشيخ بوعمامة وبطل المقاومة)، دار الشروق، الجزائر، دط، دت، ص 233.
- ¹³. المرجع نفسه، ص 135.
- ¹⁴. المرجع نفسه، ص 135.
- ¹⁵. فليب سيرنج، الرموز في الفن الأديان الحياة، ترجمة: عبد الهادي عباس، دار دمشق، ط 1، 1992، ص 189، 190.
- ¹⁶. الشاعر محمد بن قيطون من فحول الشعر الشعبي الجزائري ولد عام 1843 في مدينة سيدي خالد بالزيبان بولاية بسكرة، توفي عام 1907.
- ¹⁷. أحمد عاشور، ديوان الشاعر محمد بن قيطون، دار الشروق، الجزائر، دط، 2008، ص 164.
- ¹⁸. فليب سيرنج، الرموز في الفن الأديان الحياة، ص 378.

19. أحمد عاشور، ديوان الشاعر محمد بن قيطون، ص 164.
20. أبو جعفر محمد بن حماد العقيلي المكي، الضعفاء الكبير، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، ص 430.
21. أكرم قانصو، التصوير الشعبي العربي، عالم المعرفة، الكويت، دط، 1995، ص 87.
22. فليب سيرنج، الرموز في الفن - الأديان - الحياة، ص 297.
23. أحمد عاشور، ديوان الشاعر محمد بن قيطون، ص 167.
24. محمد بن قيطون، ديوان محمد بن قيطون، جمع وشرح: أحمد عاشور، دار الشروق للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009، ص 53.
25. أكرم قانصو، التصوير الشعبي العربي، ص 93.
26. ابن سهلة، ديوان ابن سهلة، دط، دت، ص 45.

*-- قائمة المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم برواية ورش.
- إبراهيم شعيب، الديوان العاتي للشيخ السماتي مع إمارة العشق من المسار إلى الانهيار، مطبعة رويني، الأغواط، ط1، 2012.
- أحمد عاشور، ديوان الشاعر محمد بن قيطون، دار الشروق، الجزائر، دط، 2008.
- أكرم قانصو، التصوير الشعبي العربي، عالم المعرفة، الكويت، دط، 1995.
- أبو جعفر محمد بن حماد العقيلي المكي، الضعفاء الكبير، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت.
- حسين فهيم، قصة الأنثربولوجيا، عالم المعرفة، الكويت، دط، دت.
- عباس الجراري، الزجل في المغرب، مطبعة الأمنية، المغرب، ط1، 1970.
- العربي بن عاشور، أشعار محمد بلخير (شاعر الشيخ بوعمامة وبطل المقاومة)، دار الشروق، الجزائر، دط، دت.
- عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثربولوجيا)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2004م.

- فيليب سيرنج، الرموز في الفن الأديان الحياة، ترجمة: عبد الهادي عباس، دار دمشق، ط1، 1992.
- عبد القادر أبو شريفة وحسين لافي قزف، مدخل إلى تحليل النص الأدبي، دار الفكر، ط4، 2008.
- محمد بن قيطون، ديوان محمد بن قيطون، جمع وشرح: أحمد عاشور، دار الشروق للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009.
- محمد المرزوقي، الأدب الشعبي، الدار التونسية للنشر، تونس، ط5، 1967.
- مصطفى تيلوين، مدخل عام في الأنثربولوجيا، دار الفارابي، منشورات الاختلاف، بيروت، لبنان، ط1، 2011م.